إلهام

دخل الجندي المكلف بحراسة غرفة العقيد عزيز وأدى التحية العسكرية ثم قال:

- سيدي.. فتاة تدعى "إلهام جواد" تود مقابلتك.. فقال العقيد لنفسه:
- لا بد أنها إحدى الصحفيات المتعبات اللواتي يأتين وليس في ذهنهن الاّ سؤال واحد لايستحق الإجابة عليه.. لماذا لم تتزوج؟.. ستطرح علي هذا السؤال حتما.. أفّ لهن.. إن الأمهات في الحفلات يتآمرن على تزويجي بناتهن.. وحتى الاستعمار يهمه كثيرا أمر زواجي.. وفي كل يوم إشاعة عن قرب زواجي بفتاة أو أخرى..

استرسل العقيد في هذا التفكير وقد نسي أن الجندي لا يزال واقفا ينتظر جوابا فأشار إليه بحركة بدا فيها الضيق والتذمر:

- دعها تدخل.. إن هؤلاء الفتيات لا يحلو لهن إلا تضييع وقتنا.. أدخل بعد خمس دقائق واخبرني أن الرئيس يود مقابلتي هل فهمت؟.. بل دعها تكون عشر دقائق على أطول تقدير هل سمعت؟..
- أمرك سيدي..

وأدى التحية مرة أخرى وانصرف.. ولم تلبث أن دخلت الغرفة شابة رشيقة القوام رائعة الجمال ببسمتها الذهبية وفمها الباسم وشعرها الكستنائي المذهب الغزير، وقد عقصته في جدائل حول رأسها، وأضاف إلى رونقها ما أغدقته

النافذة وراءه من نور على محياها فبدا مشعا خياليا حالما.. وذهل العقيد وهب واقفا تاركا مكتبه وتقدم منها مسلّما ثم أشار إليها بحركـة لبقـة أن تـستريح، وجلس على مقعد قبالتها يتأملها فوجد أن معانيها مفردة لا تنسجم كثيـرا مـع مقاييس الجمال ولكنها تشكل معا جمالا منسجما يأسر القلب وهمس لنفسه:

- لعل حيويتها هي سر جمالها..

وكانت "إلهام" تحاول جاهدة أن تسيطر على مشاعرها، وهي تكاد لفرط انفعالها تسمع وجيب قلبها الخافق.. وبقيت فترة صامتة تلتمع عيناها القلقتان بما تـود أن تقول حتى أسعفها الشاب بالسؤال عن مطلبها فقالت:

- أريد أن أكون جندية صغيرة في صفوفكم..

وعلت ثغر العقيد ابتسامة مشرقة لطرافة الفتاة وقال وهو يرمق الانسجام البديع بين طقمها الرمادي المزرق وبشرتها الوردية التي لم تعرف المساحيق:

- مرحبا!.. ولكننا لا نستعين بالفتيات في دوائر الجيش..

وكانت إلهام قد استعادت ثقتها بنفسها فتلاشى القلق من عينيها وحلـت فيهمـا نظرة دهشة وقالت وابتسامتها لا تفارق ثغرها وتكشف عن ثنيتيهـا العلـويين المفترقتين:

- لم؟.. الدوائر الأخرى تستعين بنا.. لقد برهنا أننا نبث الحياة في كل شيء..

وقال العقيد وهو لا يخفي ابتسامة إعجابه بالفتاة المتوثبة والطريقة التي تعبـر بها عن نفسها:

- وهذا رأيي أيضا.. إن عمل المرأة في صفوف الجيش يهذب كثيـرا مـن طبائع الرجال.. ولكن "رئيس الأركان" لا يحبذ هذا الرأي..

ولم يلبث أن دخل الجندي وأدى التحية العسكرية ولكن العقيد أشار إليه بحركة نزقة من يده وهو يزوي ما بين عينيه:

- دعه ينتظر الآن!..

وبانت الدهشة في وجه الجندي لحظة ثم حيا واسـتدار وخـرج.. وانبـسطت أسارير العقيد وأردف قائلا:

- إنك ترين.. الأمر ليس بيدي..

وابتسمت إلهام وقالت بلهجة مفعمة باليقين:

- أتريدني أن أصدق؟.. حين تريد شيئا فلن يكون عسيرا على التنفيذ..

وسر العقيد للإطراء ولكنه قال:

- من أخبرك بهذا؟..إنك واهمة..

وغامت عينا إلهام المعبرتين وقالت:

- خالي!.. إنني أعرفك معرفة وثيقة أكثر مما يبدو لك.. وأردفت وقد تهـدج صوتها:

- العقيد "محمد راشد"!..

- أيكون خالك؟.. رحم الله بطلنا الشهيد!..

وأطرق لحظة وقد تغضنت تعابير وجهه بحزن مخاص، وأحس بعاطفة جديدة توثقه إلى الشابة المجهولة التي أعجب بها..

وقالت إلهام وهي تكفكف دمعة تغرغرت بها عيناها وتسترد ابتسامتها:

- كان معجبا بك أشد الإعجاب ويعلق عليك آمالا كبارا.. كان يقول لـي إن أحدا لا يستطيع أن يتكهن مدى الانتصارات العظيمة التي سيحققها الجـيش والشعب على يديك..

وشعر العقيد عزيز بالإرتباك ولم يسعفه الرد المناسب فأدار الحديث إلى خـال الفتاة وقال:

- لقد تخرجنا معا وخضنا المعارك معا.. ولم أعرف رجـلا كخالـك قـوة أعصاب وجلد وشجاعة وذكاء.. لقد خسرناه.. خسرنا بطلا لا يعوض..

وعادت إلهام تلمس الأوتار الحبيبة إلى نفسه من ذكريـات ماضـيه.. ثـم أردفت:

- أذكر يوم جرحت بعد أن كسبتم "معركة الواد العظيمة" وجـيء بـك إلـى المستشفى في دمشق وأنت في حال خطرة.. لم يكن خالي يعرف حينـذاك

النوم وهدوء القلب كأنما حياته وكيانه ووجوده جميعا موثقة إليك.. أتصدق أنه كان يبكي لفرط انفعاله وكنت أواسيه كما أواسي طفلا صغيرا..

وتهدج صوتها وأردفت:

- يا إلهي ما هذه الحياة؟.. إن الناس يبدون لي بعد مقتل خالي وكأنهم لعـب كرتون، كأنهم أشياء أسطورية ليس لهم وجود حقيقي.. أحس قسوة الفنـاء في كل شيء ولهذا أريد أن أربط حياتي بهدف يسعد الناس أو على الأقـل يخفف من وطأة هذا العالم القاسي عليهم..

كان العقيد عزيز ينظر إليها ذاهلا دون أن يقاطعها.. حدثته بأنها نالت شهادتها في علم النفس.. ولكنها لا تجد لنفسها مكانا شاغرا يستفاد به من إمكانياتهـا.. وإنهم في المعارف وفي الدوائر يريدونها أن تقوم بأي عمل لا تحسنه ما عـدا اختصاصها.. وأردفت متسائلة:

- كيف يقوم الإنسان بعمل لا يكون حياة له ولا يشعر بالحب له؟..

وابتسم العقيد عزيز وهو يلاحق بنظره البؤبؤان الكبيران القلقان في عيني إلهام المعبرتين.. وابتسمت هي بدورها واسترسلت قائلة وهي تعبث بقفل حقيبتها:

- كم أكون سعيدة لو أتحت لي أن أجد مجالي في خدمة الجيش.. أليس مـن الضروري أن يشعر الجندي بالاطمئنان وبأن الدولة ترعاه وترهـف الأذن

لشكواه؟.. إن الجندي ليس وحيدا بل هو مرتبط إلى عائلة وهو دائم القلـق عليها.. أريد لو أدرس حياته ومشاكله وأعرف العوامل المثبطة له..

وبدا الاهتمام في وجه العقيد عزيز ولف ساقا على الأخرى وارتكـز بكوعـه إليها مسندا ذقنه إلى عقد أصابعه المضمومة، ولكن قطع عليه حبـل إصـغائه دخول جندي الحراسة قائلا:

- سيدي إن المقدم حامد يود مقابلتك..

- دعه ينتظر لحظة!..

وابتسم وهو يتطلع إلى إلهام بحنان كبير وقال:

- أحب أن أسمعك طويلا وأعرف عنك كـل شـيء فهـل تـسمحين لـي بزيارتكم؟..إن الجو هنا لا يسمح بحديث هادئ..

وخفق قلب إلهام وتألقت عيناها بمزيج من الفرح والدهشة وقالت وهي تنهض وتمد يدها مصافحة:

- أهلا بك.. أهلا.. ستملأ قلب أمي سرورا بزيارتك..

وضغط العقيد عزيز على يدها وحدق في عينيها بنظرة طويلة مفعمة بالحنـان والإعجاب فارتعش قلبها بعاطفة مباغتة عنيفة وراحت تهمس لنفسها بقلق:

- لا يمكن أن يكون هذا اللقاء عابرا في حياتي..

- سأتصل بك هاتفيا، ما رقم تلفونك وأي الأوقات تلائمك؟..

- نادرا ما أخرج من البيت.. وهاتفنا في الدليل باسم خالي..

وضغط مرة أخرى على يدها قبل أن تبارح الغرفة..

وأحست بنشوة طاغية تملك عليها أنفاسها.. وحين خرجت كانت تردد لنفسها وهي شاردة النظرات:

- إنه رائع.. إنه أروع من رأيت في حياتي!..

ولم تنتبه إلى عيني "المقدم حامد" تتفحصانها بإمعان وهو يدخل إلى غرفة العقيد عزيز..

قال المقدم حامد وهو يأخذ مجلسه إلى المقعد المجاور للعقيد:

- أريد سلفة بخمسمائة ليرة..

- ولكن الشهر في أوله ولم تف شيئا مما عليك للصندوق.. ماذا فعلت براتبك؟..

- أنفقته..

- بل خسرت في اللعب!.. إن الناس يرونك في "نادي الشرق" كل ليلة.. لا يجوز هذا يا مقدم حامد.. إن الصندوق مدين لك بمبلغ كبير وأنت لا تفي ما عليك وتخسر راتبك كل شهر في اللعب..

- لا تحاول أن تصلحني!.. إنني لا أملك نفسي.. لقد أصبحت في دمي.. هل تجد ضابطا لا يلعب؟.. ولكنني سيء الحظ وأخسر دائما فلعلي هذه المرة..

- آسف يا مقدم حامد إن الصندوق ليس ملكي ولن أستطيع أن أسـلفك شـيئا هذه المرة..
- أتريد أن "يتبهدل" ضابط في الجيش؟.. لقد استدنت اليوم حتى من جنـدي ثمن السجاير..
- سأقرضك إن شئت من جيبي، وليس من الصندوق على أن تعدني بوفـاء ديونك لا أن تخسرها في اللعب مرة أخرى.. لقد وصلتني شكوى عليك من نادي الضباط بأنك لا تدفع ثمن الطعام لعيالك وأنهـم مـضطرون لقطـع الوجبات عنهم.. إن هذه التصرفات لا تليق أبدا بشرف ضابط!..

* * *